السرد الرحلي وتمثلات صورة الآخر في "جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة" لـ سعيد خطيبي أنموذجا

Travel narration and represenrction of the other in the "janayin alshrq almultahiba, rihlt fi bilad al saqaliba" sky by said khatibi as an example

ط.د.حمزة عمارة [1]

د. محمد سرير♣

تاريخ الإرسال: 2021/12/21	تاريخ القبول: 2023/04/04	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الخوض في غمار التشكلات السردية للنصوص الرحلية الجزائرية المعاصرة، كتجربة جديدة في السرد، تختلف عن السرود الرحلية القديمة، والتي نحاول من خلالها استقراء أهم الموضوعات المشكلة للرحلة السفارية، خاصة وأن رحلة سعيد خطيبي تمثل مرجعا متعددا ومنفتحا على ثقافات أوربا الشرقية، يجمع فيها ما بين التاريخي والجغرافي والسياسي والديني، فالرحالة يحاول استنطاق المكان ومدلولاته وحمولاته الممكنة، معبرا بذلك عن تجربة ذاتية ينقل فيها انطباعاته بمرجعياتها المختلفة، فالرحلة نحو الآخر تمثل عموما فضاء سردي مميز نقف فيه على رصد سوسيوثقافي لدول البلقان، مجسدة بذلك كينونة من التواصل الحضاري وشكلا من أشكال المثاقفة.

الكلمات المفتاحية: السرد الرحلي، صورة الآخر، تمثلات المكان، المثاقفة.

[1]جامعة يحي فارس المدية/الجزائر، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، كلية الآداب واللغات جامعة لونيسي علي البليدة 02 amara.hamza@univ-medea.dz

♣جامعة يحي فارس المدية/ الجزائر serir.mohamed@univ-medea.dz

Abstract:

This stydy dins at wating in the narratig formations of contemrory Algerien text jonrneys as, a new expierience innarration that is different form old journeys subjects especialy, the journey of said khatibi reprexnts a varions source which is opened on the eastern European cultures –it gathers in it histori cal, geographical pohitical and religions ones traveler tries to inquest the place and its possible indications A travel toward the other generally represents a narrating space to spot socio- cultural a bservation of balkan countries this forms a kind of cultural communication and a type of cultrire.

***Key words**: journey narration, The other image, place presentation, a culture.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: حمزة عمارة amara.hamza@univ-medea.dz

مقدمة:

اكتست الخطابات الرحلية اهتماما متزايدا من طرف الدارسين والباحثين، قديما وحديثا، كون أن الرحالة اهتم برصد تجارب جديدة في عوالم مختلفة عن عوالمه، ذلك ما خلف سرود أدبية تجمع ما بين التاريخي والاجتماعي والأنثربولوجي، وبين النثري والشعري، وتتداخل مرويات الإخبار والوصف والسرد، ضمن الإطار العام للنصوص الرحلية، فيرسم الرحالة تبعا لذلك هويات الأمم الأخرى، في عملية مزج بين الواقعي والمتخيل، والرحلات تمثل تجربة خاصة يقوم بها الرحالة من أجل اكتشاف عوالم جديدة، وإرساء صورة سردية عن تمثلات الآخر، لتصبح نصوص الرحلة مهما اختلفت أنوعها(سياحية، حاجية، زيارية، استكشافية)، وثيقة مهمة يمكن الاستناد إليها من طرف الباحثين والناقدين من أجل، الوقوف على مميزات الرحلة، من رؤى ذاتية واكتشافات جديدة في مجالات مختلفة، هذا الأمر الذي يجعل الرحالة يقيم علاقة مع المكان ومع الآخر.

تتيح الرحلة عملية قراءة لسياقات التواصل الناتجة بين الذات الساردة(منتج الرحلة) وتقاطعاتها مع الآخر، الذي يمثل مادة أو موضوع الرحلة المحكية، باعتبار أن هذا الفضاء المرتحل إليه فضاء جديد عن ثقافة الرحالة، فالرحلة بذلك فرصة من أجل اكتشاف الآخر، ونقل تجارب جديدة غير مألوفة، وتفسير للوقائع ورصد للانطباعات، وإعادة إنتاج للصور وللجغرافيا البشرية والمكانية.

من خلال هذا التقديم يمكن أن نطرح التساؤل الآتي:

- ما الدور الذي يضيفه تمثل الآخر في "رحلة جنائن الشرق الملتهبة رحلبة في بلاد الصقالبة"؟
- ما هي أنواع التمثيلات التي صورتها الرحلة عن الآخر؟

1- السرد الرحلي في منظومته التكوينية:

صحب المزيج السردي الذي تتميز به نصوص الرحلة، الكثير من الأسئلة حول أجناسية هذا الأدب وأين يمكن إدراجه، باعتبار أن الرحلة نص منفتح على الكثير من المعارف الأخرى (كالتاريخ، الجغرافيا، الأنثربولوجيا، الأثنوغرافيا)، فيذهب الناقد المغربي إلى أن " الرحلة نص مفتوح لا يمكنه أن يتسيّج في خانة محددة تجنسه بصفة معينة تضيّق من تحرره واتساعه وانتشاره و(هجومه الضروري) على حقول أخرى، لهذا فإن القول بنصيّتها هو انفتاح على دينامية الرحلة، وعلى خطاباتها المستندة على طرفي الذات والآخر، وجسور التعبيرات المختلفة عنهما وحولهما" [1]، وبذلك يمكن القول أنه من الصعوبة أن ننسب الرحلة إلى جنس أدبي ما، ما لم نقم بالوقوف على الخصائص الأسلوبية التي تمثل مكونات الخطاب الرحلي، ولعل الذي يمنح الرحلة أدبيتها هو أسلوب الكاتب (الرحالة) في تأثيثه السردي لمختلف خطابات الرحلة.

لا يمكن أن نحكم على أجناسية النص الرحلي من زاوية الاشتغال السردي، أو باعتباره خطابا رحليا يخضع لمستويات بنيوية وأسلوبية في التحليل، من أجل استكناه عوالمه السردية التي تضمن له أدبيته، دون أن ننتبه إلى المواضيع التي تشكل نسيجه

النصي، هذا النسيج الذي تقوم به ذات ساردة تعمل على نقل مرويات الارتحال وسرود جغرافية المكان، فيحاول الإجابة عن تلك التساؤلات الصامتة التي يشاهدها ويفترضها، ومن هنا وجب التفريق بين الرحلة كفعل والرحلة كخطاب، هذا التمايز بين فعل الرحلة وخطاب الرحلة يوضحه الناقد المغربي سعيد يقطين بقوله:" الفعل تقوم به ذات تارخية محملة بأحاسيس وانفعالات ورؤيات معينة، أما الخطاب فينجزه مرسل ينجز ملفوظاته وفق قواعد خاصة وغايات محدودة تتعين في علاقتها بالمرسل إليه، وبين الفعل والخطاب مسافة زمانية، فالأول سابق والثاني لاحق، فالذات التي رأت أو ترى ليست هي الذات التي تتكلم"[2].

وبالتالي ليس كل ما دون من مادة رحلية، يمكن أن نصنفه بأنه خطاب رحلة بالضرورة، فبين العناصر الثلاث (الفعل- الملفوظ- القراءة)، نجد تنوعا في الصياغة والتراكيب لسياقات متعددة تمثل هوية النص الرحلي، فالفعل يرجع إلى ذات تاريخية تتميز بانفعالات اتجاه المشاهد والوقائع التي تراها، أي أنها ذات تتميز بعاطفة وشعور اتجاه الأماكن والأشخاص، وهي الذات التي قامت بفعل الرحلة، أما الملفوظ فهو الخطاب الذي ينتجه صاحب الرحلة، وهذا هو الأمر المهم في تحديد أجناسية الرحلة، فقد يتحقق الشرط الأول القيام بالرحلة، لكن الملفوظ قد يكون خطابا تاريخيا أو جغرافيا، فتبعا لهذا نجد غيابا لأهم عنصر وهو الخطاب الرحلي، الذي يجب أن تتوفر فيه حسب تقسيم سعيد يقطين عناصر الخطاب (البناء السردي، المتكلم والخطاب، اشتغال السرد والوصف)، ومن هنا نشير إلى أن توفر فعل الرحلة لا يعني أنملفوظ الرحلة يمثل خطابا رحليا، ما لم تتوفر فيه العناصر السالفة الذكر، فخطاب الرحلة الأدبية بذلك هو الذي يجمع بين القيام بفعل الرحلة ومكونات الخطاب الرحلي، لتأتي كمرحلة ثالثة القراءة أو تلقي النص الرحلي، وهي تمثل قدرة القارئ الواعي في التفاعل مع النصوص عن طريق إعادة إنتاجها، أو عن طريق التدخل غير مباشر في عملية إنتاج النص، فالرحالة يفترض قارئا من نوع ما هو من يوجه إليه خطاب الرحلة، وبهذا يأخذ القارئ حسب نظرية القراءة والتلقي دورا مهما في إنتاج النص الرحلي، كونه يمثل جزء

من الخطاب الذي قد يستهوي ميولاته، وهكذا تتم العملية الإبداعية بين الرحلة كفعل ومن ثمة كخطاب ملفوظ يتوجه به كاتبه إلى مجموعة من القراء المفترضين من أجل التفاعل معه، هذا ما يذهب إليه الناقد سعيد جبار في قوله:" يتأسس خطاب الرحلة إذن على هذا التفاعل بين وعيين، بين زمنيين مغايرين، يؤثر الواحد منهما في الآخر، فينتجان خطابا خاصا، وقد نضيف لهذين الزمنين زمنا ثالثا يرتبط بوعي مغاير، يعتبر فاعلا في بلورة دلالة الخطاب، فالسارد الرحالة وهو ينتج خطابه، يضع في الاعتبار الجسر التواصلي الذي يجب أن يربطه بمتلقي خطابه...فزمن المتلقي بكل ما يحفه من غموض والتباس يحضر بذاكرة السارد، وهو يؤسس مساراته السردية"[3]، وبهذا قد يتعدد المتلقي بتعدد سياقات الخطاب ومضامينه داخل نص الرحلة، وهذا ما يفسر دلالات الانفتاح داخل النص الرحلي كونه سيرورة زمانية بين الماضي والحاضر.

ينحصر اهتمامنا هنا بمقاربة نص رحلي معاصر، يمثل نموذج خطابي يعنى برصد تمثلات أوربا الشرقية متمثلة في بلدان البلقان، فمن هو صاحب الرحلة وما هي ظروف القيام بالرحلة إلى أوربا الشرقية.

2- التعريف بالرحالة والرحلة:

هو سعيد خطيبي كاتب وروائي وصحفي جزائري، من مواليد 29ديسمبر1984م، بالجزائر(بوسعادة)، عمل في جريدة " الجزائر نيوز "حيث ساهم لمدة سنتين في تحرير الملحق الثقافي "الأثر" ثم انتقل إلى جريدة "الخبر"، درس في الجزائر وفرنسا، يكتب باللغتين العربية والفرنسية.

حصل عام 2012م على جائزة الصحافة العربية، اشتهر خصوصا بتغطية مناطق النزاعات في إفريقيا وأوربا الشرقية.

من أشهر مؤلفاته:

- ✓ بعيدا عن نجمة 2009.
- ✓ أعراس النار: قصة الراي2010.

- ✓ رواية: أربعون عاما في إنتظار إيزابيل 2016.
- ✓ رواية: حطب سراييفو 2019.

صدر له في عام 2015 كتاب" جنائن الشرق الملتهبة" حصل به على جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة، والتي تمنح سنويا منذ سنة 2003 ويقدم الجائزة سنويا (المركز العربي للأدب الجغرافي- ارتياد الآفاق) لأفضل الأعمال المحققة والمكتوبة في أدب الرحلة، وذلك بهدف تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات.

أما بخصوص رأي لجنة التحكيم عن نص الرحلة فقد تمثل رأيها بأنه" في (جنائن الشرق) الملتهبة) يتنقل الرحالة المعاصر عبر ليوبليانا، غراد، زغرب، سراييفو، سربرنيتسا، بلغراد، كييف، وينقل صورا وانطباعات وملاحظات التقطها بالعين والفكر والحواس معا، وهو يكتب بلغة رائقة، ويتصف وصفه وملاحظاته بالدقو الذكاء، وتحمل لغته ملامح من ميول الرحالة القدماء، لكنها أبدا تظل أمينة لانفعالات اللحظة وتحاول أن تعيد صياغة الأسئلة بوحي من التوق إلى اكتشاف عوالم البشر في أمكنتهم، وتتبع الأحوال والمصائر الإنسانية من جوانب ظليلة وبعيدة عن المسلم به من الأشياء بما يضيف إلى معارفنا وإلى الجمال الأدبي"[4].

ويمكن أن نلمس هنا حضور مفهوم المثاقفة في النصوص الرحلية كفعل يتطلب الحوار بين الذات والآخر، هذا ما يدعو إلى حوار ثقافي تفرضه عملية الارتحال، والنصوص الرحلية قديمها وحديثها اهتمت بعملية المثاقفة كونها تجد نفسها في عملية تواصل حتمية مع الآخر المختلف، لا شك أن عملية المثاقفة تساهم في بناء الذات وخلق نوع من التقارب والتبادل الثقافي بين الشعوب المختلفة.

أما فيما يخص السياق الإنجازي للرحلة، فهي رحلة فعلية قام بها الكاتب قادته إلى مجموعة من دول البلقان، أما عن أسباب الرحلة فيقول الكاتب أن الصدفة وحده هي من قادته إلى بلاد الصقالبة، تزود الكاتب لهذه الرحلة بعدة مادية تمثلت في حقيبة ظهر صغيرة، وكاميرا رقمية، خرائط حديثة للطرقات ومحطات البنزين، وقواميس جيب

للمحادثة السريعة، أما فيما يخص عدته المعنوية فيقول :"أما عدتي المعنوية فكانت أثقل من المادية قليلا، خصوصا القراءات التي قمت بها، قبل الرحلة وأثناءها وبعدها، لأهم كتاب البلقان وأوكرانيا، المترجمين إلى الفرنسية، مع الاطلاع على بعض ما كتبه فرنسيون وعرب عن منطقة السلاف، وكان لا بدّ لي من عودة إلى ريالة ابن فضلان(كتبها عام921)"[5].

يجمع الرحالة هنا بين العدة المادية والمعرفية من أجل عملية بناء ذاته في مقابل آخر مختلف عن بلاده، هذا ما يبنه لنا السياق التاريخي لتدوين نص الرحلة حين نجده يقول:" رغم ما يفصل بلاد الصقالبة عن بلاد العرب من اختلافات ثقافيّة، فإن ميزات مشتركة تجمع بينهما، وهو ما لاحظته مع تقدمي في الرحلة، والتي حاولت أن أختصرها في هذا الكتاب، كما أنني اكتشفت بعد ثلاثة أسابيع من الترحال، أن السفر لا يقاس فقط بالمسافات، وإنما أيضا بالحالات النفسية التي يستشعرها الفرد، والتي تختلف بالانتقال من مكان إلى آخر، سواء أكان قريبا أو بعيدا، فالسفر الأكبر ليس سفرا في الجغرافيا، بل هو سفر يعيدنا إلى ذواتنا"[6].

فرحلة خطيبي تمثل سرد رحلي يسجل الاختلافات والفروقات التي وقف عندها أثناء رحلته بين البلدان العربية، وبلدان أوربا الشرقية، فهذا التواصل بين ذات الرحالة والآخر هي التي جعلته يكون فكرة جديدة عن الآخر، ومنها تولدت فكرة تدوين الرحلة، ولأن الكتابة في أدب الرحلة محكوم بعلاقات ثنائية تفرضها طبيعة الترحال الذي يستدعي خطاب الآخر، والعجائبي والغريب وكل ما يدخل في دائرة المختلف، وبهذا تصبح المثاقفة وسيلة فعالة وملحة من أجل فهم الآخر، الذي يمثل" المرآة الصقيلة التي مع الزمن تكشف بجلاء عن الذات، من الصعب اكتشاف الذات على حقيقتها قبل الانخراط في تفاعل خصب مع الآخر، فالاعتصام بالذات يحول دون كشفها وهو يماثل خطورة التماهي الأعمى مع الآخر، ونسيان الذات، فالتواصل يضفي خصوصية وتمايزا على الذات والآخر، بما يجعل الذات والآخر على حد سواء، حالة تاريخية متحولة بشكل دائم"[7].

وبما أن الرحلة خطاب يعنى بتصوير تمثلات الذات في مرآة الآخر، نتيجة توالي تراكمات معرفية وثقافية تجمع بين ثقافتين إنسانيتين مختلفتين، وبذلك يرى الرحالة سعيد خطيبي أن السفر ليس مجرد امتداد في الزمان والمكان، بل السفر الحقيقي هو الذي يعيد تشكيل الذوات الإنسانية وصقل تجاربها، وبحكم أن رحلة خطيبي تمثل تموضع ثقافي يختزل صورة الأمم الأخرى، نحاول بذلك مقاربة تمثلات عوالم جنائن الشرق داخل نص الرحلة.

3- عالم جنائن الشرق:

يمثل الخطاب السردي ل"جنائن الشرق الملتهبة، رحلة في بلاد الصقالة" تصويرا لوقائع ومشاهد حسية، تعكس الحضور الفعلي للرحالة وقيامه بالتجربة الرحلية، من أجل بناء جسر للتواصل ما بين الذات والآخر، هذه المعرفة تقوم بعيدا عن الحساسيات والتوترات التي تشهدها الكثير من الدول البلقانية، يبدأ مسار الرحلة عند الرحالة بذكر مجموعة من الرحلات قادته إلى دول أوربا الشرقية، فيجمع من خلال نصه بين سرد الشخوص والأحداث وحتى الانفعالات، مع استطرادات تاريخية حول تاريخ الأماكن والبلدان، تبدأ رحلته على متن طائرة من اسنطنبول إلى ليوبليانا، والذي يعنون نص رحلته الداخلي ب (ليوبليانا، تمارين على محاكاة الصخب الصامت)، يذكر في هذا الفصل بعض الحوارات التي كانت مع سائحة من دولة (كازخستان)، يمثل الوصف قطعة أساسية في نص الرحلة كون الكاتب غني بالملاحظات الدقيقة، يحاول أن يقدم كشكولا متنوعا من الأخبار والمعارف نحو الآخر، فنجده يصف الشوارع فيقول:" على أرصفة شوارع ليوبليانا، حيث يتجلى للناظر النمط المعماري الباروكي(نلتمسه مثلا في كاتدرائية القديس نيكولا، بالقرب من السوق المركزية) صوت خافت يصعد من تحت البلاط، يخاطب المار، يوشوش في آذانهم، ويحثهم على الإنصات إلى أعماقهم، يجرُّهم بهدوء إلى خشوع المدينة، وخجلها الإنساني في مصافحة الزائر، وتسترها الرزين خلف صمتها الصاخب"[8].

يهتم الكاتب في رحلته بوصف الكثير من الأشياء التي تمثل الحياة الاجتماعية للآخر، وفي علاقتها مع الآخر وما يمكن أن تمنحه مدينة يصفها بالخجل الإنساني، والتي ترحب بالزائر، يركز الكاتب على الجانب الثقافي للآخر، فنراه يركز على الأماكن الثقافية كالمكتبات التي تعكس ثقافة الشعوب الأخرى، فنجده وهو يصور لنا تلك الفرحة حين وجد بداخل مكتبة مكتظة برفوف الكتب القديمة، رواية لكاتب جزائري مترجمة إلى السلوفينية، فيقول "نعم وجدت كاتبا جزائريا مندسا بين صفوف كتاب عالميين، مترجما إلى السلوفينية، أمسكت الكتاب، فهمت من محاولة قراءة العنوان، أنها رواية(تومبيزا) رواية ميموني الأهم، رفقة رواية (النهر المحول). حاولت أن أتصفح الكتاب من الداخل، مع علمي المسبق أنني لن أفهم شيئا، لكن فرحة التقاء كاتب جزائري في سلوفنيا كانت تلح علي لتصفحه، وتحفزني للوقوف أطول مدة أمام الرف، كانت لحظة حميمية أشبه بلقاء صديق أو حبيب بعد غياب طويل"[9].

يمثل الكتاب جواز سفر للبلدان ثقافة مبسوطة أمام القارئ الأجنبي الذي قد يجهل الكثير عن أخبار بلدان إفريقيا، لذلك يصور الكاتب فرحته بوجود اسم لرواية جزائرية عند الآخر، في ظل غياب ثقافة ترجمة الكتب والترويج لها، لم يقتصر الكاتب في رحلته على الجوانب الثقافية فقط، بل نجده يرصد جوانب الحياة الاجتماعية واليومية وسلوكات أفرادها، فمثلا نجده يتحدث على عنصر اللباس في الثقافة السلوفينية فيقول:" على خلاف ما نجده في شواطئ مدن أوربية أخرى، تبدو(الحشمة) عنصا مهما في سلوكيات السلوفينيات، فالنسوة يسترن جسدهن ما أمكن قبل النزول إلى الماء، كما لا نجد هنالك شواطئ لسباحة العراة، فالبلد يصرّ على التمسك بالتعاليم الكاثولوكية المورثة عن الأجداد"[10].

رحلة خطيبي تمثل خطابا متنوعا، وهو يعبر عن استيعاب الذات والعالم من خلال تلك المشاهد التي ينقلها إلى القارئ، وربما هذا تأكيد على أن الرحلة تجربة فعلية تعبر عن ثقافة الالتحام بالغير" ولا يخفى أن الرحالة مهما بلغ وعيه الحضاري والثقافي

ومعارفه عند الأمم الأخرى، التي اكتسبها من الكتب والأخبار، لا يمكن إلاّ أن يعيش الواقعة مباشرة في حيويتها الآسرة"[11].

يعنون خطيبي نص رحلته الثاني الذي قاده إلى (غراد) بـ (الزعيم يقرأ شعر)، يستطرد الكاتب في هذه الرحلة في ذكر جوانب من حياة الزعيم (جوزيف بروز تيتو)، السياسية والعسكرية والثقافية، فيخبرنا عن جوانب من حياته فيقول: "في قصر غراد زرت جزءا من حياته الحميمية، خصوصا مكتبته الشخصية، يذكر المؤرخون أن زعيم يوغسلافيا كان كلما سمع عن كتاب أو أحب كاتبا أمر بترجمته إلى اللغة الصربو-كرواتية، لغته الأم ولغة البلقان سابقا"[12].

يجمع خطيبي في نص رحلته بين الشخصيات التاريخية البارزة في تاريخ دولة البلقان، فهز يجمع بين تقاطعات الماضي والحاضر، وتأثير ذلك على ذاته، أو حتى على المتلقي كقارئ للنص، فبعد زيارته لأهم معلم في بلغراد وهو مكتبة أهم شخصية تاريخية في البلاد، يقول" ما أثار اهتمامي في (قصر الزعيم) هي المكتبة، التي تكشف عن روح مبدع، وربما وقَّع تيتو نصوصا ووريت التراب معه، يكفي أنه كان يجد وقتا ليقرأ في انتظار أن يخبرنا رؤساء العرب أيضا ما يقرؤون؟"[13].

يقوم الرحالة خطيبي بعقد مقارانات ساخرة بين أوضاع مختلفة، تعكس المرارة التي تمثلها البيئة العربية متمثلة في سلوكات الرؤساء والأفراد، ثم يواصل الكاتب مسار رحلته متوجها هذه المرة نحو زغراب معنونا هذا الجزء من الرحلةب(زغراب آلهة تتهيأ للرقص)، زغراب التي يبدو إيقاع الحياة فيها مضطربا وعابسا، هذا الأمر الذي يجعل من الذات وهي تقوم بارتحالاتها تقف أمام كثير من الأشياء المختلفة عن بيئتها" لذلك ما يفوق الماضي نفسه أهمية، هو تأثيره وعواقبه على المواقف ووجهات النظر الثقافية في الحاضر، لقد عادت الانقسامات القديمة للبروز بين المستعمِر والمستعمَر لأسباب دقيقة جزئيا في الوجود الأمبريالي"[14].

كثيرا ما تبقى أثار ترسبات الماضي، جزءا مهما يتحكم في طبيعة العلاقات التي تحكم البلدان اليوم، فهذا الاتصال والانفصال القائم على فكرة إيديولوجية عقائدية، قد تغذيها في الواقع خلفيات سياسية وعسكرية وثقافية، تزيد من حدة التأزم بين هذه الدول التي ترفض تقبل فكرة الآخر المختلف، بمنطق يحتكم إلى التعصب الديني والانتماء الجغرافي، هذه الانقسامات والشروخ التي حدثت مع دول البلقان لا تزال تبعياتها متواصلة ومتوارثة إلى اليوم، هذا الأمر الذي جعل من الرحالة يقوم بفعل مغاير من أجل يتجاوب مع الآخر، فمثلا انطباعته عن كرواتيا نجدها تتمثل في أنه لم يشتر تذكرات ولا بطاقات كما يفعل السياح عادة، بل كما يقول هو" فأنا لم أشعر يوما بنفسي سائحا، فكل الأمكنة التي أزورها، أحاول سريعا الانصهار في ليونتهاوصلابتها، والاختلاط مباشرة بناسها، مع النظر إليها من زاوية غرض واحد: الكتابة عنها، بشكل يحرم عليا عيش اللحظة، والاستمتاع بسحر المدن"[15].

يمثل تنوع الرحلات إلى بلدان مختلفة تنوع في المادة الخطابية لمحكي السفر، فبعد رحلة خطيبي إلى (كرواتيا) كانت الوجهة (سراييفو) معنونا نصه الرحلي بـ (سراييفو، أمشي خلف ظلّي وأردد أنشودة طفولية)، هي رحلة صوب حياة أخرى وأفق آخر، ممتزج بالثقافات والعرقيات، ربما ما يمز لغة السرد الرحلي عند خطيبي هي اللغة الشعرية في السرد والوصف، وهذا ما يمثله مثلا هذا المقطع السردي" سراييفو تدغدغ الذاكرة كلحن بعيد عائم، يظهر ويختفي دون توقف، هي وجه مقسم نصفين، بين شرق مسلم وغرب مسيحي، هي لوحة فنية طبيعية ملطخة بسواد سنوات الحربين العالميتين ثم الحرب الأهلية، وهي العنوان الأبرز الذي كان يتكرر ويتصدر النشرات الإخبارية منتصف التسعينيات"[16].

يتميز سرد الرحلة بين الاستذكارات التاريخية واستنطاق صور الحاضر، فسراييفو تمثل جزءا من ذاكرة الرحالة لأنها تمثل امتدادا لتشابه الظروف والوقائع، فتتفاعل الذات هنا مع ذاكرة سراييفو المعطوبة التي نجد لها حضورا قويا في تمثلات الكاتب لها، فيرجع سبب التعلق هذا إلى" الجرح الذي ما يزال ظاهرا على محيّاها،

تراجيديا الحرب التي ألبستها غير ثوبها، سنوات الطفولة في الجزائر، في سن العاشرة كنا في المدرسة، وفي فرقة الكشافة، نغني لأطفال سراييفو، كنا مثلهم نعيش على وقع الموت والدم، وصور القتل اليومي"[17].

هذه الأحاسيس التي تتشابه بين ماضي الجزائر وسراييفو، وهما يتقاسمان جراحات كثيرة ومآسي لا تزال أثارها ممتدة إلى اليوم في ذاكرة الكثيرين، إذا كان هذا ماضي سراييفو فإن حاضرها كما يصوره (خطيبي) يمثل حياة بسيطة وفقيرة، صعبة تعتمد على الزاد القليل للاستمرار في الوجود، بين حلم الهجرة إلى الضفة الأخرى من أوربا والبقاء في وضع سواداوي مظلم، رغم كل مشاهد الحرمان ومخلفات الحروب، إلا أن الذات نجدها تتعلق بهذا المكان وبعنفوانه يقول خطيبي في نص رحلته مصورا ما تتركه انطباعات المدن فيقول" اليوم أشعر أنني تركت جزءا من قلبي في سراييفو، فقد وجدت فيها ما لم أجده في مدن أخرى: سكينة ورغبة في التأمل العميق، مدينة تشبهني وأشبهها إل حد التماهي، كسولة مثلي، ظريفة وفقيرة وفخورة بنفسها، لحارتها ونسائها ومقاهيها روائح قوية ما تزال تدغدغ أنفي، فهي سراييفو التي تغازل زائرها من لحظة المقابلة الأولى، تميل إليه وتغريه بما استطاعت إليه سبيلا كي يظل فيها ولا يتركها"[18].

يسرد (سعيد خطيبي) تاريخ الآخر ممزوجا بتلك الدفقات الشعورية التي تتلتصق بالذات، فيصور جاذبية المكان، وهو يلم شتات التاريخ المتناثر لدول البلقان على صفحات رحلته التي نجدها تستمر، في توزيعها وتأثيثها للمكان والشخوص، داخل دائرة السرد الرحلي، لتستمر الرحلة نحو وجهة جديدة هي بلغراد معنونة بـ (إشتراكي يصفق.. ورأسمالي يرقص)، بعمق معرفي بالتاريخ وتحولاته يبحر "خطيبي" ويغوص في مهمته التي يحبها وهي رصد حركات الناس فيقول:" شوارع المدينة الواسعة ونمط الحياة المضطرب هما ميزتان مهمتان من ميزات العاصمة الصربية، أمام محطة القطار، التي لا تبعد عن سلافيا بأكثر من ربع الساعة، يمكن للعين أن ترصد طبقات المجتمع المختلفة، من علية القوم إلى أبسطهم، وجوه متعددة وعيون مختلفة تعبر عن تعدد إثني وثراء ثقافي، وتراتبية اجتماعية"[19]، يحاول الرحالة سرد التاريخ المضمر لحياة الشعوب، فيقدم

صورة صادقة بعيدة عن تزييف الصحافة والإعلام، صورة نابعة من مشاهدة حسية عاشها، ثم يحاول أن ينقلها إلى القارئ بكل عفوية، فيسترسل في حديثه العفوي عن دولة (بلغراد) فيصورها شوارعها فيقول: "أرصفة المدينة كما لو أنها تحكي قصصا وتتكلم لغة مبعثرة لا تشبه اللغات الأخرى، تسرد بشجن تاريخا لم يكتمل، كل شيء في بلغراد يبدو كما أن انطلق على أحسن ما يرام لكنه لم يتمم مسيرته ولم ينته كما ينبغي، كل شيء يقبع في حالة انتظار، متطلعا إلى بعث جديد، إلى مخرج من الركود وإتمام التكوين"[20]. هكذا يحاول أن يطوقك الرحالة بطقوس سرده الشعرية، يأخذك بين الأمكنة والشخوص والتاريخ، وكأنك تعيش تجربة الرحلة في آنيتها، تكتشف عوالم الشرق، عبر ذات الرحالة وهي تسرد وتصف ملامح متفرقة من تجارب الآخرين، ولعل الشيء الذي يربط هذه الرحلات المتفرقة في الزمان والمكان إلى بعضها، هو الخيط السردي وتكاثف شعرية البوح في التأثيث، فسرده الرحلي يمتاح من تجربته الروائية، ومساره الصحفي الحافل، وهكذا ينبني النص الرحلي على رؤية واعية بالعملية السردية الإبداعية.

يكتمل عالم جنائن الشرق بالرحلة الأخيرة التي قادته إلى (كييف) والتي عنونها بـ (كييف، شفتشينكو يلعب الشطرنج)، بعد أن وجد نفسه فجأة يتأهب للسفر إلى أوكرانيا دون مقدمات، في إطار مهمة صحفية، هذا البلد الذي يعيش نزاعات الحروب والحدود، فيقف الكاتب على "صور الانحدار واللاانحدار الذين يؤديان بدورهما إلى مزيد من تقليص وتطلعات وآمال الإنسان في بناء علاقات إنسانية متكافئة ومتآزرة، علاقات تقوم على العقل والنظام والتوازن، وتغذي أخلاق الإنسانية الرحيمة والعادلة، أخلاق مجابهة قيم التدمير والعدوان التي لا تسمح في نهاية المطاف بتجاوز أعطاب التاريخ والسياسة والحرب، وهي الأعطاب التي ما فتئت تتمظهر بصور جديدة ملحقة بالإنسان المزيدرمن عذابات الروح والجسد"[21]، مظاهر التشتت والفرقة التي سببتها الحروب، كان الرحالة خطيبي شاهدا على تبعاتها على المكان والإنسان، من خلال ما تم الإشارة إليه سابقا من صور البؤس والحرمان، التي يسعى الشعوب إلى تجاوز أعطاب التاريخ، ففي

رحلته الأخيرة وقف على واقع الصراعات التي حولت دول أوربا الشرقية إلى جنائن ملتهبة، بمخلفات الحروب والصراعات والنزعات القومية، هذا ما جعل من" كييف حكاية ممزقة، تعيش اضطرابا وشتاتا داخليين، غير قادرة على استيعاب الصدمات التاريخية المتتالية، والتي تزايدت حدتها في العشر سنوات الماضية، في تلك المدينة القلقة التقيت سلافا يختلفون عن نظرائهم في الجنوب في احتفالهم المستمر بالحياة رغم كل المحن، وعدم الثقة سمة لا يتنكرون لها، فهم لا يعرفون تماما أين تسير بهم الأقدار، مع ذلك فهم مستمرون في الحلم"[22]، يولد هذا الإحساس عند الشعوب التي تعيش في الصراعات ضرورة التعايش مع الحياة بخلق نظة جدية للحياة، يمكن أن نسميها خضوعا أو استسلاما. ويمكن أن تكون أمر واقع لا بد من التسليم به.

جسدت الرحلة عبر محكيات السفر التي تطرقت إلى مجموعة من العواصم لبلدان أوربا الشرقية(دول البلقان سابقا) متمثلة في (ليوبليانا، غراد، زاغراب، سراييو، سريرنيتسا، بلغراد، كييف)، تركيبة سردية مزجت بين الحضور التارخي داخل النص الرحلي، ومزجت بين بين سرود ثقافية متنوعة، تنبع من خلال استقراء الآخر وتذويب معالمه المشكلة له، مؤسسة بذلك لرؤية جديدة لعوالم الشرق الملتهبة، محاولين بذلك مقاربة تيمات حضور الآخر في نص رحلة (جنائن الشرق الملتهبة)، وما الذي أضافه هذا الحضور في المتن السردي الرحلي الجزائر المعاصر.

4- تمثلات الآخر:

عبَّر استحضار الآخر في رحلة (جنائن الشرق الملتهبة)، جوهر المادة الحكائية باعتبار الآخر يمثل داخل الرحلة هوية مغايرة، نتجت عن طريق أشكال المثاقفة بين الأنا والآخر، وما نتج عنها من إفرازات ثقافية، تُعبر عن حضور الآخر داخل النص الرحلي، من زوايا مختلفة فرضتها سياقات المسار السردي للرحلة، أو الرغبة التي تتحكم فيها ذاتية الكاتب في الإخراج النهائي لنصه، فيشكل الآخر تبعا لما سبق أبعادا مختلفة حسب ما يذهب إليه الناقد المغربي شعيب حليفي حيث" يشكل الآخر بالنسبة للراوي جزءا أساسيا في بناء الرحلة من كافة المستويات، باعتبار أن السفر هو(مرآة الأعاجيب) ومرآة

النفس التي لا ترى تفاصيلها إلاّ بالانتقال والاغتراب، والاحتكاك مع آراء وسلوكات وتقاليد الغير والاصطدام ببعضها والتوافق مع البعض الآخر، حيث رؤية الذات صافية عبر المقارنات المتعددة والقاسية أحيانا"[23]، فالكاتب حين ينتج نصه لا يمكنه أن يلغي شرعية الآخر، فهو يمثل الجانب المهم من العملية السردية، فالرحلة تقوم بذلك على مرجعيات خطابية متعددة قامت بها الذات الكاتبة فعليا، في زمن الرحلة، أما السرد هنا فيمثل القالب الخطابي ذو الأبعاد الفنية والجمالية، التي تصور لنا تمثلات الآخر.

وبالعودة إلى رحلة (جنائن الشرق الملتهبة)، نجد أن الرحالة من خلال اللغة استطاع توصيف المكان بأبعاده المختلفة ومن ثمة يصبح المكان شيء مرئي له شعور وجداني في ذهن المتلقي، ففي نص الرحلة نجد وصفا لمدينة(سربر نيستا) " التي لا تزال منارة المسجد السني وجرس الكنيسة الأثوذوكسية المتقابلين لم يصالح أحدهما الآخر، لكنهما لم يمنعا الأهالي من تنفس لذة العيش، وخوض تجارب حياتية جديدة"[24]، يمثل هذا المقطع السرد تصويرا للحياة الدينية في مجتمعات البلقان، والتي تمثل عالم شديد الحساسية التي غذته الصراعات فلا تزال الخلافات مستمرة، فهذا الخوف من الآخر المختلف وحالة التوتر التي كانت الحروب سببا فيها، عاشتها ذات الرحالة أثناء سفرها من سلوفينيا إلى بلغراد، حين طلب منه شرطي التفتيش الحدودي جواز السفر ثم جرى بنها حوار يعكس استمرارية حالة التوجس من الآخر المختلف " طلب مني جواز السفر، قلبه بين يديه، نظر إلى التأشيرة، تأكد من التاريخ المدون عليها ثم شرع في الأسئلة(لماذا جئت من البوسنة؟)(ماذا كنت تفعل هناك؟)(كم يوما قضيت هناك؟)، كان شرر يتاطير من عينيه، علامات تعجب تطفو على محياه، توجب علي أن أن أشرح له كل القصة، ومن البداية، وبأنني جئت فقط في رحلة إلى البلقان، وليس لدي نوايا سياسية أو انتماءات"[25]، عكست هذه التجارب التي ينقلها لنا الكاتب طبيعة العلاقات بين الأنا والآخر التي تتسم أحيانا بالعداء وأخرى بتقبل الآخر، هذه العلاقات التي تتحكم فيها خلفيات سياسية وطبيعة التوتراتوالحساسيات التي شهدها العالم، وخاصة دول البلقان التي كانت مركزا استقطب هذه الصراعات الإثنية والعرقية " فوقفة الذات مع

الآخر باختلافه الثقافي والحضاري، هي وقفة مشبعة بالقلق، بل هي وقفة سرعان ما تلتبس بالرحيل، فتصير انطلاقة نحو المختلف"[26].

هذا القلق يمكن أن نسمه بالقلق الطبيعي إذا كان قلق البدايات التي تفرضه الأشياء في مكاشافاتها الأولى، كما يمكن أن يرتبط هذا القلق بأشخاص يمثلون هيئات معينة، مثل ما سبق ذكره في نظرة الشرطي للآخر، كم نجد نظرة الأنا نحو الآخر من منظور المكان الذي يأخذ دورا مهما في العملية السردية، كونه مرتبط برصد تاريخ وجغرافيا الدول التي يزورها الرحالة، كما أنه يمثل هوية الآخر ويحيل على جوانب اقتصادية وسياسية واجتماعية، يضع لها الرحالة قالبها المناسب في خضم متنه السردي، فيأتي تأثيث الرحلة جامعا بين وظيفتي السرد والوصف مع إصباغ الحالات الشعورية التي تنطبع في الذات الساردة، وما يمكن أن تحمله من أبعاد دلالية، تساهم في جمالية النص الرحلي، هذا ما يمكن أن نتبينه في هذا المقطع السردي" تبدو زغراب كما لو أنها مدينة متوحشة، عدائية، تصدم زائريها بتماثيل رموزها، وهي على هيئة استعداد للهجوم، للمقاومةأو المباغتة، مستعدة لقطع الرأس أو اليد أو فقء العين، لكن ملامح ناسها الصامتة تعكس المعادلة"[27].

يبقى صدق هذه الصور نسبي يرتبط بشعور فرد وليس جماعة، قد تهيأ له الأماكن في صور مختلفة توحي بصفات البشر كالقتل وقطع اليد، فرحلة (خطيبي) تمثلت بلدان مختلفت تتميز بعادات وسلوكات مختلفة، ففي حديثه عن زيارته إلى مسجد سلطان فاتحوف أو(الشيخ المغاربي) وقت الظهر فيقول:" واجهنا التاريخ بكل عراقته...وكما عليه الحال في زغراب، الصلاة تجمع الرجال وخلفهم نساء، دونما عازل ولا حجاب، يدخلون من باب واح ويشتركون في رف الأحذية، في حالة من التنظيم الخلاق، دونما تجاوزات أو إشكالات، فحالة التكافل والتسامح التي خلفتها سنوات الحرب تجذرت بعمق في المجتمع البوسني الحالي، الجميع كان يعيش دراما مشتركة، والجميع يتفهم محنة الآخر وألمه، وهو أمر عزز ويعزز التواصل الاجتماعي بين مسلمي البلد الواحد"[28].

فهكذا نجد أنه قد تتعدت صور الآخر ومظاهر تشكلها داخل نص الرحلة، وأن الكاتب قد وفق في تصوير فيض من الأحاسيس التي استطاع من خلالها الانغماس في فضاءات الآخر، متأملا في أشكال الحياة ومساهمة في صناعة رؤية جديدة نحو بلدان أوربا الشرقية، مبني على المثاقفة الإيجابية مع الآخر، فصور لنا الرحالة سعيد خطيبي ومن زاوية رؤيته نص يعمل على خلق تواصل متاكفئ مع الآخر، ليمثل نص رحلة (جنائن الشرق الملتهبة، رحلة إلى بلاد الصقالبة) مساهمة من الكاتب الرحالة في التعريف بثقافات الأدب المختلفة وإثراء للمكتبة العربية، بنص رحلي يصور على لسان الرحالة عالم جنائن الشرق الملتهبة فيجد القارئ في هذه الكتاب" عطور وروائح معلقة في الذاكرة لأناس قابلتهم ومدن زرتها، تتنوع تضاريسها من جبال وغابات وبحيرات وأنهار، وتتعدد فيها الأقليات والديانات، وتقع فيها على صفيح ساخن، مدن جنائنية ملتهبة، تختزن بحزم أسرارها، ولا تكشف سوى عن القليل من خباياها وتستحق دائما أن نعود إليها"[29].

طبيعة الرحلة التي تمثل خلاصة تجارب الرحالة، تجعل منها مستمرة دوما في الزمان والمكان، فالسفر إلى الآخر هو عودة إلى الذات، من أجل إعادة تشييد عوالمها، فرحلة سعيد خطيبي تمثل نموذج لسرد رحلي قائم على مهمة الاكتشاف والارتحال، من أجل إعادة رسم صورة جديدة لأدب الرحلة، برؤية إبداعية من حيث الكتابة والطرح والرؤية، فهو نص يمثل امتداد لنصوص الرحلات العربية القديمة، لكنه يتميز برؤيا جديدة ومعاصرة أتاحتها له العولمة التي نعيشها اليوم.

خاتمة:

وفي الأخير يمكن أن نخلص إلى أن رحلة (جنائن الشرق الملتهبة، رحلة في بلاد الصقالبة)، سرد رحلي ممتع ومتنوع جمع بين خطابات سردية ومعرفية متعددة، فهو مزيج بين ارتحلات السرد واستحضار موضوعات التاريخ والجغرافيا السياسية، وصراع الأقليات وتعدد الإثنيات في العالم، فهو نص رحلي غير ثابت، ربط بين جغرافية المكان بحمولاتها الدلالية المختلفة وتأثيرها في نفسية الرحالة والمتلقي.

كما تمثل الرحلة قدرة سعيد خطيبي في الجمع بين تجربته الروائية والصحفية واستثمارها في كتابة نصه الرحلي، وسبر أغوار الذات ورصد تمثلات الآخر الثقافية والاجتماعية والدينية، والتي اتسمت بالإيجابية والسلبية، فالرحلة إذن جواز سفر لاكتشاف عالم جنائن الشرق، ورصد واقعي وكتابة واقعية تهتم بتأثيث نص يعنى بالأحداث والشخوص المشكلة لعوالم وبيئات إنسانية متباينة، كل ذلك بأسلوب أدبي مميز وشائق لا يخلو من الجمالية الأدبية.

كما أن الرحلة تمثل خطاب ثقافي، يمكن معالجته من منظور السرد الثقافي من أجل الوصول إلى قراءة أنساقه المضمرة، وبالتالي الوقوف على أبعاده الجمالية من زوايا نقدية متعددة.

*** *** **

الهوامش:

[1] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنس،آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، د ط، القاهرة، 2002م، ص42.

[2] سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، دار الأمان، ط1، المغرب، الرباط، 2012م، ص175.

[3] سعيد جبار، من السردية إلى التخيلية، بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، دار الأمان، ط1، الرباط، المغرب، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2012م، ص175.

[4] سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة، رحلة في بلاد الصقالبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، لبنان، بيروت، دارالسويدي، الإمارات، أبو ظبي، 2015م، ص15.

[5] نفسه، ص18.

[6] نفسه، ص19.

[7] عبد الله إبراهيم، المركزية الإسلامية، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، المركز الثقافي العربي، ط1، لبنان، بيروت، 2001م، ص125.

[8] سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة، ص25.

[9] نفسه، ص27.

[10] نفسه، ص34.

[11] فريد الزاهي، الصورة والآخر، رهانات الجسد واللغة والاختلاف، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سورية، دمشق، 2013م، ص72.

[12] سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة، ص37.

[13] نفسه، ص42.

[14] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، ط4، لبنان، بيروت، 2014م، ص87.

[15] سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة، ص72.

[16] نفسه، ص74.

[17] نفسه، ص75.

[18] نفسه، ص92.

[19] نفسه، ص115.

[20] نفسه، ص123.

[21] كمال عبد اللطيف، العرب والعالم نحو تواصل متكافئ ومنتج، مجلة المناهل، عدد86، وزارة الثقافة، المغرب، يونيو2008، ص30.

[22] سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة، ص134.

[23] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص301.

[24] سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة، ص93.

[25] نفسه، ص107.

[26] سعد البازغي، مقاربة الآخر، مقاربة أدبية، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1999م، ص12.

[27] سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة، ص52.

[28] نفسه، ص87.

[29] نفسه، ص150.